ابن باتي الصوت!! صوتها!!

من داخلي ينبع؟!

لا.. ليس من داخلي.

لا.. لا.. بل من داخلي.

من ذاكرتي.

هل الذاكرة لها صوتٌ مسموع؟!

[يتجه نحو الهاتف على طرف المكتب، يرفع السماعة بارتباك، ويضرب رقماً]

الأمر لم يعد يحتمل المكابرة، ولا السكوت!!

الو.. مساء الخير.. انا عناد الصلصالي.. كيف الحال يا سيدتي!! شكراً لك.. هل الدكتور حسان موجود!! مسافر!! آه.. فعلاً.. نعم.. نعم.. لقد نسيت!! نعم.. مع انه ابلغني بذلك. نعم.. شكراً يا سيدتي.. شكراً.. مع السلامة!!

[يضع السماعة. ويبتعد مفكراً]

لماذا تسير الأمور هكذا بشكل معاكس!!

منذ ايام وانا اقنع نفسي بالحديث مع الدكتور حسّان.

لا.. ليس سهلاً البوح بمثل هواجسي لطبيبٍ نفسي.

ماذا سيقول عني!! هو صاحبي فعلاً. لكن..

كيف سينظر لي إذا ماذا اطلعته على حالي!!

ايهما اسهل!! احتمالُ ما انا فيه. أم مصارحة الدكتور حسّان!!

(بخوف شديد) لا.. مصارحة الدكتور حسّان اسهل..

اسهل الف مرة مما انا فيه.

ورغم ذلك.. وفي اللحظة الحرجة.. أجد الدكتور مسافراً!!

الأمور تسير بشكل معاكس لما أريد!!

ماذا اريد في الحقيقة؟.

هل انا خائف!!

هل انا واهم؟

هل انا مصابٌ بمسٍّ من الجنون؟

لا.. ليس جنوناً هذا!! لعلّه هوس.. لعله بداية انفصام في الشخصية.

شخص مثلي.. مبدعٌ.. عبقريٌ..

(يستدرك ويتساءل)

هل انا عبقري!!

نعم. عبقريٌ وذكيٌ

شخص مثلي يعيش في الحقيقة على حافة الجنون.

نعم على حافة الجنون.

لا.. بل في قلب الجنون.

يُخيل لي.. ان ما نسميه إبداعاً. هو ما يسميه الناس العاديون جنوناً.

صوت الزوجة: عناد.. عناد.

[يهز راسه رعباً. يتجمد.. صوت الرعد في الخارج لمعات البرق يحاول أن يطرد عن ذهنه ما يسمع كأنه يكذّب اذنيه]

لو كان معي احدٌ لتاكدت تماماً إن كان ما اسمعه حقيقيا أم من داخلي..

إذا بقيت وحيداً سوف أُجنّ.. لا.. انا واثق ان الجنون.. الجنون الحقيقي.. في طريقه إليّ.. إذا بقيت وحيداً..

[يتجه نحو التلفون. يرفع السماعة.. يضرب رقماً]

الو.. مساء الخير.. يا هلا.. كيف انت يا يوسف!! بخير!! انت بخير.. لكنني انا.. لست بخير.. لا.. أعاني من الوحدة.. ليتك تاتي.. نسهر سوياً. ونقتل هذا الوقت المليء بالضجر.

انت في حالة ضجر ايضاً!! حسناً، إني انتظرك.. تعال بسرعة. إلى اللقاء.

[يضع السماعة. الأمطار تشتد في الخارج وكذلك صوت الرياح]

كان يجب ان اتصل بيوسف من قبل.

الوحدة قاتلة.

لا شك انها السبب فيما يصيب المرء من تخيّلات وأوهام.

هل ما انا فيه وهم حقاً!!

وعجزي عن الكتابة. هل هو وهم!!

إنه حقيقة واقعة.

ماذا يحدث لي!! إنني لا أدري.

أحسُّ أن إعصاراً عنيفاً هبّ على حياتي. وما يزال يهبُّ وينثر اجزائي في كل الجهات.

شيء ما يستبيحني.. يحرثني طولاً وعرضاً. يتمشى في أعصابي. يدوسُ على كياني كله.. يُخرّبني.

نعم.. شيء ما يخرّبني.. يفسدُ كل حياتي.. يحوّلني إلى مزق وأشلاء.. منذ أن ماتت رحاب.

[يصيح متألماً]

تعال يا يوسف.. تعال وللمني.. تعال..

[رنين جرس الهاتف.. يذهب نحوه بسرعة، ويرفع السماعة وقد تفاجأ]

آلو.. نعم.. نعم يا يوسف.. أين أنت!! ماذا حدث!! الطريق قطعتها السيول والأمطار!! أليست هناك طرق بديلة! نعم.. نعم.

لا.. إنني اسمع صوت الأمطار.. لكنني لم أخرج خارج البيت!

نعم.. ألا توجد وسيلة توصلك إليّ! آه.. لا بأس.. لا بأس.

لا عليك يا يوسف.. ساتدبّر أمري.. شكراً.. مع السلامة.

[يضع السماعة].

كل الأمور تسير بشكل معاكس.

بالتأكيد. أنا مُتّجه نحو كارثة. نحو هاوية سحيقة.

الدكتور حسّان مسافر..

يوسف يأتيني فيجد الطريق قد جرفتها السيول والأمطار.

ما معنى هذا!!

وأنا هنا.. هنا أين!!

هل أنا في بيتي. أم في الهواجس التي تأكل رأسي؟

[يشجع نفسه]

يجب أن أتماسك.. نعم.. يجب أن أتماسك..

يجب أن استخدم عقلي كي استوعب ما حدث ويحدث لي.

[ينهر نفسه].

رتب أفكارك يا عناد الصلصالي!!

سأرتب الأحداث.. سأنظم الوقائع كما حدثت. حتى أضع يدي على مصدر الخلل. على منبع القلق.. حسناً.

أولاً.. رحاب ماتت منذ ثلاثة اسابيع.. في حادث سير مرّوع.. أنا.. لا علاقة لي بموتها. لو كان لي علاقة لقلت ان ما أنا فيه هو تعذيب الضمير. لا.. لقد كان الحادث بسبب السرعة الزائدة.

هكذا قال تقرير الشرطة.

إذن... ليس لي يدٌ في موتها.

هذا ما يجب أن تفهمه رحاب!!

يا إلهي.. اتكلم عنها وكأنها حيّة. كأنها في مكان ما.

ولكنها بالفعل في مكان ما.

أشعر بها هنا حولي.. تسمعني وتنظر إليّ.

(يصيح في الفراغ)

ما علاقتي أنا بموتك!!

[يحاول استعادة هدوئه]

ولكن.. لماذا أنا مضطربٌ وفاقدٌ لأعصابي؟!

لقد قلت بأنني سأرتب الأحداث. وأُنظم الوقائع.

نعم.. لقد ماتت رحاب.

وتلقيت العزاء بموتها ثلاثة أيام.

صحيح أنني كنت مشغولاً أثناء ذلك بنفسي أكثر من انشغالي بها. ولكن هذا لا يشكل سبباً لغضبها..

إن كانت غاضبة فعلاً..

(يتساءل)

ما الذي فعلته بعد ذلك؟!

[يصمت ثم كأنه تذكر]

نعم.. كنت مشغولاً بالتفكير في الرواية الجديدة التي سأكتبها. يجب أن اعترف أنني مشغول منذ زمن بالتفكير في رواية بطلها مؤلف تموت زوجته في حادث سير فاجع!!

لكن.. ما ذنبي اذا كانت الأقدار قد توافقت مع ما افكر به.

هل تفكيري هو الذي جعلها تموت بالفعل كما اخطط للرواية!!

يا إلهي.. هل اكتب حياتي بنفسي!! هل رواياتي هي ما اتمناه؟!

هل هي صور من حياتي؟ هل هي امنيات أودُّ لو تكون واقعاً!!

هل كنت اتمنى موتها في الحقيقة.. كي اعيش روايتي!!

هل هي غاضبة لذلك!! لا شك انها غاضبة لذلك.

(يصرخ في نفسه)

كيف اتحدث عن غضبها وكانه شيء مفروغٌ منه!!

من قال انها غاضبة!!

ولكنها غاضبة بالفعل.

والأ.. لماذا تناديني!! لماذا اسمع صوتها. وصوت ضحكتها!!

لماذا تطاردني منذ موتها؟. لماذا تحول بيني وبين الكتابة؟

انها تعرف ان الكتابة هي حياتي. وهي طريقي للشهرة والمجد.

وهي مُعادل وجودي نفسه.ولهذا تحول بيني وبين أن اكتب.

[يصيح]... ماذا تريدين مني؟

صوت الزوجة، عناد.. عناد.

[الكاتب يشعر بالرعب. ينظر حوله.. يتراجع للخلف باتجاه المكتب وهو يتلفت يميناً ويساراً.]

سافقد عقلي بالتاكيد.. اذا بقيت هنا.

[برق شديد في الخارج، صوت الرعد والمطر، يلتقط الكاتب مفاتيح سيارته عن المكتب ويتجه نحو الباب الرئيسي يفتحه، فيرتطم بالجدار بفعل الرياح الشديدة. تهب الرياح للداخل وتحمل معها بعض أوراق الشجر، ضباب كثيف يملأ منطقة الباب ويتسرب للداخل.. يتراجع الكاتب مرعوباً للخلف وهو يحدّق في الضباب، الذي ينجلي عن الزوجة وهي ترتدي ثياباً سوداء تغطيها.. تدخل بثبات وهدوء وتغلق الباب خلفها. فيما يتراجع الكاتب للداخل، وهو يهز رأسه رعباً وغير مصدق]

الكاتب: (برعب) رحاب!! كيف!! ومن اين اتيت.. من اين؟!

الزوجة: (بهدوء) من داخلك.. من كل خليّة فيك.. الست زوجتك!!

الكاتب: (برعب) مني!! كيف!! ومن التي ماتت!! ومن انت!!

الزوجة: هل هذا هو المهم؟

الكاتب: وما المهم إذن!! إنني أكاد افقد عقلي

الزوجة: [ساخرة] وكانك لم تفقد عقلك بعد!! لقد فقدته أيها الكاتب الكبير منذ زمن بعيد.

الكاتب: [يكاد يفقد القدرة على الكلام] انا!! ولكن.. لا. لا اصدق عيني.. لا اصدق عيني.

الزوجة: متى يا عناد ستصدق عينيك!! متى سترى الأشياء كما هي؟ كما هي. وليس كما تريد أن تراها.

الكاتب: ماذا. ماذا تريدين مني! ولماذا رجعت.. كنت اظنك متّ. وانتهيت. كيف.. كيف عدت!!

لا شك انني جُننت.. او متُّ.

الزوجة: [ساخرة] ايضاً.. انت ميت منذ زمن بعيد!!

الكاتب: إنك تدمّرين اعصابي.. تحطمينني.. ماذا تريدين!! ماذا تريدين؟!

الزوجة: جئت امزّق الأقنعة التي اعتدت على ارتدائها طوال حياتي معك.. جئت احاسبك يا عناد على كل ما فعلته معي.

الكاتب: انا!! ماذا فعلت؟؟

الزوجة: (ببراءة) لم تكن تُحبني؟

الكاتب: بل.. بل كنت احبك.

الزوجة: احببت مالي.. واستثمرته.. واستمتعت به، وصعدت بفضله كل درجات السلم الاجتماعي.

الكاتب: لقد بذلت كل جهودي كي أصنع منك انسانة مثقفة لا تستطيع الجامعات أن تصنع مثلها، رغم أنك نصف متعلمة.. وشبه أمّية.

الزوجة: صحيح.. ولكن.. من اجل من فعلت ذلك؟.

الكاتب: من أجلك طبعاً.

الزوجة: بل من أجل نفسك. انت لم تفعل شيئاً في حياتك من اجل احد. كل ما فعلته هو من اجل عناد الصلصالي. لقد احببت أن تلعب دور بجماليون.. وكنت انا التمثال الذي صنعته.

لقد صنعتني لترضي غرورك.. لترضي شهوة الابداع داخلك! لم اكن بالنسبة لك إلاّ كيس نقود. ولهذا كنت تُطارد النساء من ورائي.

الكاتب: ماذا!!

الزوجة: نعم.. كنت تُطارد النساء من ورائي. كنت تقيم العلاقات واحدة تلو الأخرى.. اليس كذلك؟

الكاتب: انا!! كيف تقولين هذا؟!

الزوجة لقد خدعتني جيداً وانا على قيد الحياة. لكنني الآن.. بعد أن مُتّ.. رايتك على حقيقتك.. رايت كل ما فعلته بي.. لقد كنت كاذباً.. مزيفاً.. مخادعاً.

لا ادري من انت على وجه التحديد بعد ان تكشفت امامي كل الأقنعة التي كنت تلبسها..

(تصيح به)

من انت.. من انت!!

(يتراجع مرعوباً)

الكاتب: لا.. لا.. ارجوك.. ارجوك.

الزوجة: (تصرخ بالم) من انت ايها المسخ المشوه!!

اين وجهك الحقيقي؟.

الكاتب: (بخوف ورجاء) انا.. انا زوجك.. الذي يُحبك.. هل نسيت كل كلمات الحب التي قلتها لك؟ وقصائد الغزل التي كتبتها لك؟.

الزوجة: (بالم) قصائد الغزل ايها الكاذب!! لقد القيتها على مسامع كل فتاة عرفتها. وكنت تقول لها انك كتبتها من أجلها، أو من أجل عينيها!!

الكاتب: (مذهول) انا!!

الزوجة: نعم.. انت ايها الشاعر المخادع.. انت الذي مسخت الشعر، مسخت الصور الجميلة والمعاني النبيلة، من اجل حفنة من المال، من اجل اغواء فتاة، من أجل شهرتك التافهة.

الكاتب: ولكن.. ولكن الشعر كله.. كذبٌ جميل. وخيالٌ في خيال.

الزوجة: ليتك كنت كاذباً في الشعر فقط..!!

(تتالم) كنت اظن انك عملاق كبير، ممتلئ فكراً وعاطفة واحاسيس...

كنت اشعر بالدهشة والحب عندما اسمعك تتكلم عن المبادئ والاخلاق، والمشاعر، عن القضايا الكبرى، عن عذابات الناس.

كنت عمياء، وغبية لأنني صدقتك.

لم اكن ادري انني اعيش مع ممثلٍ.. بل مهرجٍ.. يصبغ وجهه كل لحظة بلون جديد.

الكاتب: انت تبالغين.. انت تظلمينني.. اتركيني.. اتركيني.

الزوجة: لن اتركك.. قبل ان آخذ حقي منك، لن اتركك قبل ان امزق كل الأقنعة عن وجهك!!

[تقترب مع كلمتها الأخيرة منه محاولة أن تمسك وجهه لكنه يتراجع للخلف مذعوراً هارباً]

الكاتب: لا.. لا..

[يمضي نحو الباب الرئيسي يريد الخروج، يحاول فتحه وهو يلتفت نحوها، لكن الباب لا ينفتح ينظر لها برعب وهي تقف أمامه بثبات]

الزوجة: لن تستطيع أن تهرب مني.. أين ذهبت ستجدني امامك، معك.. في داخلك.. تحت جلدك.. لن

تتخلص مني.

[تنسحب الزوجة بعيداً عن الباب الرئيسي فيما يظل الكاتب هناك يكلم نفسه بذهول]

الكاتب: هذا عذاب.. هذا عذابٌ لا استطيع احتماله.. انت لست ميتة فاستريحُ منك.. ولست حية فاتفاهم معك.

الزوجة: انت الذي تعذب نفسك.

الكاتب: (بالم) كيف.. كيف.!!

الزوجة: لأنك ترفض الاعتراف امامي بكل مساوئك، بكل خياناتك، بكل الكذب والخداع الذي مارسته وعشته.

الكاتب: انا!!

الزوجة: نعم.. انت ترفض ان تكون على حقيقتك المجردة البسيطة، تريد ان تكون كل الشخصيات المتناقضة الوهمية التي ترسمها لنفسك، في رواياتك، وامام الناس.

كيف لا تتعذب، وانت تمزق نفسك، وتلبسها كل هذه الأقنعة!!

الكاتب: كيف تقولين هذا! هل من المعقول ان يفعل إنسان بنفسه كل هذا بارادته!.

إن كان ما تقولينه صحيحاً فانا لست مسؤولاً عنه،

لقد وجدت نفسي هكذا.

نعم.. لقد وجدت نفسي هكذا.

هناك من هو مسؤول عن صياغتي بهذا الشكل الذي تدعين!

الزوجة: (تصيح وهي تقلّده) تدعين!! تسمي كلامي ادعاء!! لا تريد ان تتنازل عن كبريائك وتعترف ان ما اقوله هو الحقيقة، إعترف.. إعترف ولو مرة واحد انك على خطأ.

حتى امام انسانة ميتة لا تريد ان تعترف بالحقيقة.

اي عذاب تتشبث به ايها الشقي، كيف تُطيق حياتك؟!

الكاتب: (بالم) انا لا اطيق حياتي.. لا اطيقها.. ولكن ما تقولينه ايضاً قاسٍ ولا يُطاق.

الزوجة: ذلك لأنك كتلة من التناقضات..

انت تعرف بينك وبين نفسك انك مخادع.. وانتهازي.. وبلا موقف..

وتعرف انك تغطي طموحاتك ومكاسبك الشخصية الصغيرة بادعاءات كبيرة..

انت تحتقر ذاتك، لكنك مع ذلك تحرص عليها.. ولا تسمح لأحد ان يمسها.

[تصرخ في وجهه]

لماذا انت حريصٌ على هذا الخراب الذي هو انت؟

الكاتب: (يصرخ بالم) لست حريصاً عليه، لست حريصاً.

الزوجة: بل انت حريصٌ عليه.

الكاتب: لست حريصاً على اي شيء.

الزوجة: اعترف إذن. انك انت المسؤول عن خراب نفسك وليس احدٌ غيرك.

الكاتب: (بذهول) انا!! انت قاسية.. لا ترحمين!!

(كيف اكون مسؤولا عن نفسي، وعمّا انا فيه، وانا نتاجُ ابي وامي، نتاجُ تربيةٍ تلقيتها.. ونتاجُ بيئةٍ عشتُها!!

الزوجة: (باسف) وكذلك لم تعد طفلا، اصبحت رجلا واديبا كاتبا.

وطرحت نفسك مفكراً ذا رؤية ووجهة نظر، وها انت تعترف انك نتاج تربية تلقيتها، وبيئة عشتها.

انت تبرر ما انت فيه، لأنك راضٍ عنه مستمتعٌ به.

انت تحب اقنعتك، تحب شهرتك التافهة، تحب المديح الكاذب، والتملق الرخيص.

انت لا تستحق ان اغضب منك.. انا ارثي لك

وداعاً.. وداعاً لا لقاء بعده.

[تنسحب للخلف باتجاه الباب الرئيسي فيما الكاتب مذهول.. لكنه يهب فجأة ويتشبث بها]

الكاتب: إلى اين!! إلى اين تذهبين.. اين تتركينني؟!

الزوجة: اتركك.. لما انت فيه، لما انت مستمتعٌ به.

الكاتب: لا.. لا تتركيني، لا تتركيني، لقد سئمت حياتي..

[يبدأ بالانهيار]

سئمت الأدوار التي أمثلها... والاقنعة التي ألبسها، سئمت اسمي.. وشهرتي... سئمت ذاتي..

لا تتركيني.. لا تتركيني.

الزوجة: يبدو أنك نسيت أنني ميتة، ولا استطيع البقاء معك.

الكاتب: ماذا افعل بعدك! كيف أعيش بعد الذي سمعته منك!! نعم.. إنني أكابر.. كل ما قلته صحيح.. كل ما قلته صحيح.. [يبكي]

أنا المسؤول عن خرابي، أنا المستمتع بالطين والوحل الذي أنا فيه، مستمتع بالشهرة، وبنظرات الإعجاب، وعبارات الإطراء.. مستمتع باسمي.. [يبكي]

لم اكتب حرفاً واحداً حقيقياً.. كل ما كتبته هو من اجلي.. من أجل ذاتي.. [يبكي]

الزوجة: اعترف يا عناد.. اعترف، واخلع القنعة الزيف.

الكاتب: [يبكي] كنت اتمنى في اعماقي أن تموتي في حادث سير فاجع..

[يبكي] كي ارثك من ناحية.. وأعيش تجربة تراجيدية يتحدث عنها الناس من ناحية ثانية.. واكتب عن ذلك رواية.. من ناحية ثالثة. [يبكي]

الزوجة: اخلع الاقنعة يا عناد.. إخلع.

الكاتب: كلُّ ما عشته هو كذب وتمثيل وخداع [يبكي] اتذكرين!! اتذكرين عندما اقدمت على الإنتحار حزناً على هزائم الأمة وضياعها، وتركت ورائي رسالة بهذا المعنى يومها.. وانقذتموني في آخر لحظة في المستشفى. [يبكي]

كل ذلك كان كذباً، كان مسرحية من مسرحياتي في المقبرة، كان انتحاراً استعراضياً، نصف انتحار.

كنت اعرف العدد الكافي من الأقراص التي تؤدي للموت.. لكنني تناولت اقل من نصفها [يبكي].

كنت مستمتعاً بما كتبه النقاد عني، وعن محاولة انتحاري.

[يدور في الصالة وهو يبكي ويعترف ولا ينظر لها، فيما هي تنسحب للخلف].

الكاتب: كنت اريد ان الفت الانظار لي، ان اجعل من نفسي بطلاً وشهيداً، كنت اريد ان اوهم الناس انني احمل عذابات العالم فوق راسي، وانا.. انا الذي لم افكر باحد... لم افكر إلا بنفسي.. [يبكي].

حتى انت زوجتي لم اكن افكر بها إلا باعتبارك مصدرا للمال. وسببا من اسباب هذه البحبوحة من العيش الذي استمتع به (يبكي).

كل ما قلته صحيح.

حتى عندما بدات اهتم بك بعد زواجنا، واعلمك، وافتح لك آفاق الثقافة والأدب، كنت بالفعل اصنعك من جديد، ليس من اجلك، بل من اجلي، ولهذا، لم افكر يوماً ان استمع لك، لم يخطر ببالي ان اجلس واحادثك كاني زوج عادي، يحب زوجته.. ويعترف لها بالجميل على كل ما فعلت له.. (يبكي)

كنت وغداً.. متكبراً.. انانياً.

كنت اذهب كل ليلة إلى المنتديات، والفعاليات الثقافية، والمعارض، وجلسات الحوار.. لا لشيء.. الا لانني لا أطيق البقاء في البيت..

كنت رجل حياة عامة.. لانني لم استطع ان اكون رجل حياتي الخاصة!!

كنت القي المحاضرات عن حقوق المراة.. وانا الذي لم اعطك اي حق من حقوقك.

ينتشر الضباب قرب الباب تختفي الزوجة فيما هو مشغول عنها باعترافاته التي يلقيها وهو يتالم ويبكي ويدور هنا وهناك.

[ينظر للمكتب. للأوراق. للملفات يهجم عليها، يتناول الأوراق، يمزقها بغضب].

كله كذب.. كله كذب..

لم اعش كلمة واحدة مما كنت اقول واكتب.

انا بائع كلام..

لا اعني ما اقول..

انا.. من انا.. من انا؟!

انا مزقٌ شتّى

ملامح مستعارة.

اصداء اصوات الآخرين.

اين انا.. ومن انا.. من انا.. من انا

[ينهار على الأرض وهو يصيح]

[يظلم المسرح دفعة واحدة. فيما تبعث موسيقى ناعمة وهادئة خلال الاظلام ترافق بداية المشهد التالي].

المشهد الثاني

* المكان ذاته.
* الجو صاف في الخارج.
* الوقت صباحاً.
* اللمبة على المكتب مضاءة.
* الكاتب على الكرسي خلف المكتب ويداه مفرودتان على المكتب ورأسه فوقهما، نائم على المكتب بملابس النوم.
* الزوجة قادمة من الدرج على يمين المسرح تلبس روب نوم طويل، تنظر للكاتب.. تتجه نحوه.. تنظر له بحنان واسف تمد يدها تطفئ اللمبة بجانبه.. تنهره برفق من كتفه.

الزوجة عناد.. عناد.. عناد..

[يرفع الكاتب رأسه رويداً رويداً عن المكتب وهو يشعر بتعب شديد، ينظر للزوجة وما يزال غير واعٍ تماماً].

الزوجة، الا تتخلص من هذه العادة يا عناد.. تنام على مكتبك كلما سهرت للكتابة..

الكاتب، (بذهول) انت!! انت هنا يا رحاب؟!

الزوجة، (مستغربة) هنا!! طبعاً هنا، لماذا تسال!!

[يقف الكاتب وقد صحا تماماً، وبدا يعي]

الكاتب، [يمسكها من كتفها] انت هنا يا رحاب!!

الزوجة، ماذا اصابك يا عناد!! من المؤكد ان النوم فوق المكتب قد اتعبك.. هيا.. تعال، تعال واكمل نومك في غرفتك.

الكاتب، لا.. لا.. لا اريد ان انام..

[يتكلم كالحالم وينظر حوله بفرح وذهول]

لقد شبعت نوماً.. اريد ان اصحو «نعم» اريد ان اصحو.. «بل» لقد صحوت انا صحوت.. هل انا صاحٍ يا رحاب.

الزوجة، (تضحك) انت اليوم غير طبيعي يا عناد.. ماذا اصابك.. لعلك انهيت روايتك الجديدة.

الكاتب، لا.. لا.. لن اكتبها.. لن اكتبها.. لا اريد ان اكتب.. لا اريد ان اكتب.

الزوجة، عناد!! ما الذي حدث!!

الكاتب، (ينظر لها بحب) الذي حدث!! انني احبك، نعم.. انني احبك.

الزوجة، (سعيدة) عناد!! ما الذي حدث لك!!

الكاتب، (بحب) الذي حدث.. انني مشتاق إليك.. أحسُّ انني كنت في سفر بعيد بعيد. وانني عدت الان.. عدت اليك.. الى بيتنا.

الزوجة، (سعيدة جداً) هذا ليس عناد الذي اعرفه، هذا عناد جديد!!

الكاتب، منذ اليوم.. ساخذك معي في إجازة طويلة استريح فيها، واستعيد نفسي.. واستعيدك، وابدا معك حياة جديدة.

الزوجة، (غير مصدقة) احقاً ما تقول يا عناد!!

الكاتب، نعم.. نعم يا رحاب.. هيا.. هيا، ولا تُضيعي الوقت حضري حقائبنا.

الزوجة، (سعيدة) هذا هو عناد .. هذا هو زوجي الذي احلم به.. منذ زمن طويل..

- ختام .. تموز 1999

نقد...

الشعراء الشباب في الأردن

"جماعة أجراس نموذجاً"

- دراسة تطبيقية -

د. غسان اسماعيل عبدالخالق
جامعة فيلادلفيا

مشكل الأجيال

تمثل نظرية الأجيال أو الفترات ظاهرة جدلية ما زالت موضع رد وقبول بين النقاد، لما تنطوي عليه من محاذير تتمثل في صعوبة الفصل الحاد بين جيل وجيل، وفي خطورة إبراز السمات العامة للجيل أو الفترة، على حساب الخصوصيات الفردية. ومع ذلك، فهي قد تكون مفيدة، إذا ما ركن الناقد إلى مستندات تاريخية أو نظرية تسوغ له دراسة مجموعة من الشعراء الذين تعرضوا لمؤثرات موضوعية متشابهة، وتقاربوا في الأعمال أو الرؤى.

إن ناقداً مثل رينية ويليك، يبدو متشككاً في جدوى الانطلاق من مقولة الأجيال بالمعنى البيولوجي خاصة، إلا انه يبدي تقبلاً لحقيقة أن (بعض اللحظات في تاريخ التغير الأدبي تتأثر بفئة من الشباب متقاربي الأعمار)[1] الذين شهدوا احداثاً تاريخية أو ثقافية كبيرة، وإن كان ميالاً بوجه عام إلى الإعتقاد بأن الشيوخ، اصحاب الأعمال الناضجة، هم الذين يملكون أن يحدثوا تغيرات جوهرية في الأدب.[2]

ولا يعدو مسمّى (الشعراء الشباب) كونه احد الصيغ الممكنة لنظرية الأجيال، فهو على الصعيد الزمني، يمكن الاتساع به ليشمل شعراء تخطوا عتبة الأربعين واصدر بعضهم اعماله الشعرية الكاملة، كما يمكن اقتصاره على الموجة الأحدث من الشعراء الشباب مثل جماعة أجراس. أما على صعيد التغيير، فمع أن الشعراء الشباب هم الأكثر جراة على الابتكار والتجديد في الشكل والمضمون في العادة، إلا اننا لا نعدم استثناءات تحول دون إطلاق القول باطّراد العلاقة بين التجديد وحداثة السن، إذ قد نقف على وجوه من التجديد والجراة والابتكار لدى شعراء في سن الشيخوخة، فيما نفتقد هذه الوجوه لدى شعراء حديثي السن.

وعلى الرغم مما يبعثه مسمى (الشعراء الشباب) من نشوة في نفوس المبدعين الواعدين، إلا انه سرعان ما ينقلب إلى لعنة ستظل تطارد كل من نُسب إليه سنوات طويلة، فهو لا يخلو - كما لا يخفى على الجميع - من الإيحاء، بأن تجربة كل من ينضوي تحته هي في طور التكون الذي لا يعدم بعض العثرات التي يمكن تسويغها بحداثة التجربة. وقد بلغ الأمر بأمجد ناصر - وهو شاعر اردني يقيم في لندن - حد التصريح في مهرجان جرش الخامس عشر، بانه لم يعد شاباً ولم يعد راغباً في أن يُقرا كشاعر شاب، لأن معيار الشباب حال - كما يرى - دون التفات النقاد إليه أو إلى غيره من الشعراء بجدية كافية، لأنهم (النقاد) يفضلون الانهماك في قراءة تلك التجارب الشعرية التي تم التسليم باكتمالها ونضجها[3].

ولانني على يقين من ان امجد ناصر، ليس الشاعر الوحيد الذي غدا زاهداً في الانتساب إلى جيل الشعراء الشباب، لما جرّه عليه هذا الانتساب من غبن، فإنني ارى أن الاتجاه إلى استخدام مسميات توصّف الحالة الشعرية التي

افرزها عدد من الشعراء، هو الإجراء المنهجي الذي يمكن ان يتكفل بدفع إشكال من هذا النوع، وقد سبقنا إليه شعراء اوروبيون، فكفوا انفسهم وكفوا النقاد مؤونة هذا الارتباك، حيث اهتموا بإصدار بيانات ادبية مُدعمة بنتاجات شعرية، اعتبرت منطلقات اساسية للدراسات النقدية، مثل بيان الرمزية او السوريالية[4]. وإن كان هذا الاتجاه لم يحل دون دراسة بعض الشعراء (الغاضبين) دراسة منفردة، كما فعل الدكتور محمود السمرة، حينما افرد بالدراسة ـ فيما افرد ـ صمويل بيكيت وجان جينيه وجيته[5].

إن عدم تمكن السواد الأعظم من الشعراء الشباب، من نشر قصائدهم ضمن دواوين مطبوعة ومتداولة، يمثل عقبة كأداء أخرى، تحول دون اهتمام النقاد بالشعراء الشباب، إذ ليس أصعب من تعقب ومتابعة قصائد هؤلاء الشباب، المنشوره في صحف ومجلات كثيرة، علاوة على أن هذه القصائد - إن توفرت فرصة الوقوف عليها - لا تقدم صورة وافية عن مستوى تجربة هذا الشاعر او ذاك، اي ان التورط في قراءتها نقدياً، سوف يفضي بالناقد إلى استقراء ناقص ونتائج تعوزها الدقة والشمول. مع أن بعض هذه القصائد المفردة المتفرقة يشي بتميز أصحابها وخاصة قصي البدي وزياد عناني وجريس سماوي. ولا يقل الشعراء الشباب الذين أصدروا دواوين شعرية إرباكاً للناقد، نظراً لتباعد هواجسهم وتفاوت مستوياتهم، إلى الحد الذي سيدفع بأية دراسة يعوزها الوقت الكافي وتتورط في دراستهم مجتمعين، إلى الوصف والتوثيق ليس إلا، وإن كان من الضروري الإشارة إلى تميز بعضهم مثل باسل طلوزي ومهند ساري وجهاد هديب وعاطف الفراية وطارق مكاوي.

وإزاء هذا التشتت الذي قد يدفع بالدراسة إلى الوقوع في اسر الاستعراض الأفقي لمجمل النتاجات الشعرية الشابة ـ لما ينطوي عليه هذا الاستعراض من ملاحظات جزئية ووصف وتوثيق خارجي للمضمون ـ فقد فضلت الاقتصار على نموذج لظاهرة شعرية شابة هي (جماعة اجراس) التي توفر فرصة القيام بدراسة تطبيقية معمقة.

الصخب الذي سبق الهدوء

تمخض النصف الثاني من عقد الثمانينات، عن موجة من الشعراء الذين سبق لهم أن تورطوا بنسب متفاوتة، فيما يسميه الناقد عبدالله رضوان (قصيدة الخطاب)[6]. أي تلك القصيدة التي كانت تستمد رؤاها مباشرة، من الحدث السياسي والهموم الوطنية الكبرى. وقد استطاعت هذه الموجة من الشعراء ممثلة بيوسف ابولوزويوسف عبد العزيز وزهير ابو شايب، ان تحدث قطعاً جوهرياً مع ماضيها الشعري على نحو لافت يمكن التدليل عليه ببساطة من خلال المقارنة بين عناوين الدواوين الأحدث لهؤلاء الشعراء وعناوين دواوينهم السابقة[7]. لقد غدت شعرية الشعر هاجس هذه الموجة من الشعراء، فكست خطابها السياسي بطبقة سميكة من اللغة والاستعارات والصور والأخيلة، وابدت اهتماماً بارزاً بقضايا الإنسان الوجودية والمعرفية وتجلية موقفه من ذاته ومن الكون، ممهدة الطريق بذلك لجماعة أجراس، اهم ظاهرة شعرية في التسعينات، يمكن دراستها، للأسباب التالية:

أولاً- التقارب العمري بين شعرائها.

ثانياً- تعرّض شعرائها لظروف تاريخية وثقافية متشابهة، إذ عاشوا ظروف الصراع العربي الإسرائيلي وخروج المقاومة الفلسطينية من بيروت، وواكبوا انبثاق الديمقراطية في الأردن وإنعقاد مؤتمر مدريد للسلام وما اعقبه من تحولات، وقبل ذلك واثناءه وبعده، فإن خطاب الحداثة الشعرية (ادونيس بوجه خاص) وخطاب العقلانية النقدية (الجابري بوجه خاص) كانا في متناول أيديهم. فهما الخطابان اللذان مثلا ـ في جانب رئيس منهما ـ محصلة مراجعة نقدية للماضي والحاضر، املتها هزيمة حزيران التي أسهمت في خلخلة مجموعة الثوابت الأسلوبية والفكرية التي كان يتبناها معظم المثقفين

رمى عن قوس مصطفى وهبي التل، في غير موضع من ديوانه الأول، كما لاحظ الدكتور خالد الكركي في تقديمه لهذا الديوان[9].

ومع أن البيان لم ينص حرفياً على الإقرار بالتواصل مع التراث، لكنه أوحى به، إلا أن القراءة المتمعنة في المنتج الشعري للجماعة - بعد إعلانها - تفضي إلى الجزم بضعف هذا التواصل، إذ باستثناء عبارة فريد الدين العطار التي ضمّنها علي العامري صفحة الإشارات في ديوانه، والإشارة العابرة للشنفرى والسليك التي ضمنها محمد عبيدالله ديوانه، فإننا لا نكاد نقع على أي دليل على تواصل مع التراث، إلا إذا عدونا بعض قصائد علي العامري، تمثل تمثلاً خاصاً وغير مباشر للتجربة الصوفية.

وإن كان ثمة عقد يوحّد تجارب أعضاء هذه الجماعة، فهو ممارستهم الحق في حرية التعبير عن هواجسهم بهدوء، وعلى أنحاء مختلفة، كما جاء في بيان الجماعة، مما أغنى هذه التجارب، وجنّبها محذور الوقوع في إسار الصوت الواحد، وإذا ما استثنينا ديوان باسل رفايعة، الذي سبق تشكيل الجماعة بخمس سنوات، وأخذنا بعين الاعتبار ما نشره بعد تشكيل الجماعة وقبل تشكيلها بسنتين، سنلاحظ إتجاه شعراء الجماعة إلى قصيدة التفعيلة بوجه خاص، وقصيدة النثر بنسب متفاوتة، واستبعاد القصيدة العمودية استبعاداً تاماً.

باسل رفايعة: من الصحراء إلى استجلاء الأفق

من المعضلات التي تنقض مضجع الناقد، اتجاه كثير من الشعراء إلى التكتم على بداياتهم الأولى، خاصة حينما يحققون طفرة نوعية في تجربتهم الشعرية. ولا يخلو هذا التكتم من مسوّغ مشروع، يتمثل في تخوفهم من أن لا توضع هذه البدايات في موضعها المناسب، من السياق العام للتجربة، والحق أن بعض الدراسات النقدية التي تعقبت هذه البدايات، عززت هذا التخوف وأكدت وجاهته، حينما تعلقت بأمر البدايات، وراحت تستمد منه كثيرا من الأحكام وتسحبها على مجمل التجربة، إلى الحد الذي قد يتضخم معه هذا التعلق بالبدايات، حتى يغيّب المرحلة التالية عليه ويبتلعه تماماً. على أن هذا التكتم قد يفضي - من جهة أخرى - إلى خسارة حقيقية، لا يحس بها إلا الناقد المتلهف على تأصيل تجربة الشاعر، أو تجربة مجايليه من الشعراء، والكشف عن جذوره الشعرية وهواجسه الأولى، التي - إن صادفت تفهماً نقدياً - اسهمت في توجيه القراءة النقدية وجهة إيجابية.

وأحسب أن تكتم باسل الرفايعة، على ديوانه الأول (خماسين الوطن)، يعد امراً متوقعاً، في ضوء هذه المقدمة، إذ أن القراءة المقارنة بين اي من قصائد ديوانه الأول، وما نشره من قصائد متفرقة في بعض الدوريات، بعد عام *1990*، تظهر القفزة التي حققها على الصعيدين، الشكلي والمضموني. على أن الفائدة الحقيقية والجوهرية التي ينطوي عليها ديوان (خماسين الوطن) تتمثل في الحضور الواضح والجلي لرائدين بارزين من روّاد حركة الشعر العربي الحديث في الأردن، وأعني بهما: مصطفى وهبي التل وتيسير سبول. ولاشك في أن هذا الحضور يكشف عن الحلقة المفقودة في سلسلة التجارب الشعرية الأخرى التي ضمّتها جماعة أجراس، حيث أسهمت حماسة باسل رفايعة لإصدار ديوان في وقت مبكر، في الوقوف على نماذج شعرية مرجعية، نجح زملاؤه الآخرون في طمس مثيلات لها على الأغلب، لأنهم ببساطة لم يمتلكوا الحماسة الكافية لإصدار دواوين شعرية في ذلك الوقت *(1987)*.

يضم ديوان باسل رفايعة، الذي صدر قبيل تشكيل جماعة أجراس بخمس سنوات، ثماني عشرة قصيدة، منها خمس قصائد عمودية طويلة، وثلاث عشرة قصيدة (مُتَفْعَلة) يمكن اعتبارها قصيرة، إذا قورنت بالقصائد العمودية. ويشي العنوان الرئيسي للديوان، إضافة إلى عناوين القصائد، بنزعة غنائية وخطابية عميقة على الصعيد المضموني أو على الصعيد الإنساني، وإن كان من